المجاز في الرؤية العقدية

الكلمات المفتاحية:المجاز _ الرؤية _العقدية

البحث مستل من رسالة ماجستير

أ.د إياد عبد الودود الحمداني **فنن نجم عبدالاله**

جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الانسانية **المديرية العامة لتربية ديالى**

metonymyman@yahoo.com ***fanan328@yahoo.com***

الملخص

جاء هذا البحث ليسلط الضوء على الرؤية العقدية للمجاز من الوجهة التي بحثها العلماء المسلمون، والكيفية التي نظر إليها البلاغيون والنقّاد المعاصرون بين منكرٍ لوجود المجاز في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبين مؤيدٍ لوجوده وعدِّه آلية من آليات الأسلوب التي يتحقق بوساطتها الإعجاز القرآني، عند استقراء المنجز النقدي لهم ومحاولة مناقشته.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه وبعد،

يُعدُّ الأسلوب المجازي أظهر الأنظمة حيويةً وثراءً، وتكثيفًا دلاليًا وجماليًا في آنٍ واحد، فالمجاز يقوم على إقصاءٍ للمعاني الظاهرة، والتحول عنها إلى دلالات إيحائية عميقة؛ مما يجعل المتلقي يشعر بلذةٍ في أعماق الذهن محاولةً منه للوقوف عليها، وقد مثّل المجاز طاقةً كامنةً حاول البلاغيون/النقّاد قديمًا وحديثًا سبر أغوارها والوقوف على أسرارها؛ لمكانة المجاز في اللغة، فهو يتصدر بنية الكلام الإنساني بحيث لا يخلو حديث منه، فهو ليس وسيلةً جماليةً في الكلام فحسب، بل هو عامل رئيس في الحفز والحث وأداة تعبيرية ومصدر للترادف وتعدد المعنى، هذا وقد درس البحث تمييز البلاغيين/النقّاد القدماء بين نوعين من الأساليب: الأسلوب الحقيقي إذ نستخدم الكلمات في دلالاتها الوضعية، والأسلوب المجازي إذ نتجاوز بالكلمات الدلالة الوضعية إلى دلالةٍ مجازيةٍ، فضلًا عن بحث للغة القرآن والاختلافات العقدية التي وقع فيها العلماء المسلمون، حول الآيات التي تبدو في ظاهرها مناقضة لتصورات العقل، ورفضِ بعضهم وقوع المجاز في القرآن، وقدّم البحث كذلك المجاز العقلي والرؤية المعاصرة للنقّاد فيما يخصّ مسألة وقوعه في القرآن، واتبعتُ ذلك بخاتمة

سجلتُ فيها أهم الملاحظات العلمية والنتائج؛ بما ينسجم مع الطابع التنظيري الذي تقوم عليه إجراءات المنهج، وأخيرًا فإنّ هذا البحث خطوة تمثل جهد المقلّ في هذه الحياة المليئة بالمبتكرات، والمسالك الجادة على سبيل المعرفة والله الموفق.

الحقيقة والمجاز:

ارتبط هذان المتقابلان بظروف فكرية، وعقدية، وفنية، وفلسفية، وغيرها، ونظر الدرس البلاغي الناضج إلى هذين المتقابلين بوصفهما ثنائية؛ فقد ذكرت المصادر أن هناك مَن أنكر وجود المجاز، ولاسيما في ميدان العقيدة والأصول في حين ربط آخرون بين الحقيقة وأصلها المجازي والعلاقة الجدلية الفلسفية بينهما، فقد أُثير جدل كبير بين العلماء القدماء منذ العهود الأولى لنشأة الدراسات اللغوية والنقدية حول دلالة اللفظ العربي عمومًا، واللفظ القرآني بشكل خاص، ما هو منه حقيقة ، وما هو منه مجاز، وقد ارتبطت هذه المسألة بفلسفة اللغة، ومظاهر تطوّرها وآلية عملها، وأبرز مَن بحث هذه القضية ابن جني (ت٣٩٢هـ) حين ذهب إلى جعل المجاز قسيمًا للحقيقة بوساطة تحديد مفهوم كلٍّ منهما بقوله: ((الحقيقة ما أُخّر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز ما كان بضدِّ ذلك وإنَّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة هي: الاتساع والتوكيد والتشبيه فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة))[١]، فالمجاز وفق رؤية ابن جني ما كان بضد الحقيقة التي ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، وإنّ المجاز يقع ويعدل إليه عند الحقيقة لمعانٍ ثلاث هي : الاتساع، والتوكيد، والتشبيه[٢]، ويجد ابن جني في موضع آخر أنَّ أكثر ٣اللغة مجاز في قوله: ((اعلم أنَّ أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة))[٣].

بيد أنَّ ابن فارس (ت٣٩٥هـ) على الرغم من جعله المجاز مقابلًا للحقيقة أيضًا فأنَّه اختلف مع ابن جني في عدِّ المجاز هو الأصل في اللغة مشيراً إلى ذلك بقوله: ((الحقيقة: الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير، كقول القائل: أحمد الله على نعمة إحسانه وهذا أكثر الكلام))[٤]. ويمكن القول إنَّ رأي ابن فارس ألصق بالنظرة اللغوية؛ فأصل المجاز حقيقة وأصل الحقيقة حقيقة أيضاً فيكون الأصل الغالب في اللغة الحقيقة، على عكس رأي ابن جني الذي جعل أكثر اللغة مجازات شاعت حتى نُسي أصلها؛ فهو انتقال من مجاز إلى مجاز لا حقيقة فيه وهذا مخالف للمنظومة الراسخة في شكل المجاز وفي شكل الحقيقة[٥].

أمَّا ابن الأثير(ت٦٣٧هـ) فكان معتدلاً في بحثه هذه المسألة، مدلياً برأيٍ وسط يختلف عن الآراء التي حادت عن الاعتدال، مؤكداً على فساد الرأيين المتضادين؛ الرأي الذي ذهب إلى أنَّ الكلام كلَّه حقيقة لا مجاز فيه، والآخر الذي ذهب إلى أنَّ الكلام كلَّهُ مجاز لا حقيقة فيه مشيرًا إلى ذلك بقوله: ((وقد ذهب قومٌ إلى أنَّ الكلام كلَّه حقيقة لا مجاز وذهب آخرون إلى أنَّه كلَّه مجاز لا حقيقة فيه وكلا المذهبين فاسدٌ عندي))[٦]. أمَّا اليمني العلوي (ت٧٤٩هـ) فقد برزت براعته في المناقشة والاستدلال، وتطويع اللغة في موضوع وضع الحدود بين الحقيقة والمجاز، حين أشار إلى أنَّ الفيصل في معرفة الحقيقة والمجاز هو اللغة لا غير، محدداً التفريق بينهما بأمرين: الأوَّل: التنصيص (بقطع الاحتمال)، والآخر: الاستدلال (معرض الاحتمال) واضعاً خمسة أوجه للتنصيص يمكن من خلالها معرفة الحقيقة وتمييزها عن المجاز من دون إعمال الفكر، وإنَّما بالاستناد إلى ما حدّده واضع اللغة مسبقاً للتفريق بينهما إذ يمكن توضيحها في الآتي:

١-التصريح بالقول إنَّ هذا حقيقة.

٢-أنْ يُحدَّ كلٌّ منهما بحدٍّ يميزه عن الآخر.

٣-أنْ يُذكر لكلٍّ منهما خاصية تخصّه.

٤-أنْ ينص بالألفاظ على أنَّها تستعمل في مواضيع حقيقة، وفي مواضع أخرى على أنَّها مجاز.

٥-أنْ ينص على أنَّ الألفاظ عندما تستعمل مطلقة فهي حقيقة وإذا استُعملت مقيّدة فهي مجاز.

أمَّا الاستدلال فهو أنْ ندرك من الكلام أموراً تشعرنا بالتفرقة بينهما، وقد وضع لها أربعة أوجه هي:

١-عندما يُفهم اللفظ من غير قرينة هو حقيقة وإذا لم يُفهم إلا بقرينة فهو مجاز.

٢-تعليق الكلمة بما يستحيل عقلاً هذا هو المجاز.

أن يضعوا لفظاً لمعنى ثم يتركوا استعماله على العموم فيكون حقيقةً فإذا أُطلق على المفرد كان مجاز.

استعمال أهل اللغة عبارات مخصوصة لإفهام غيرهم معنًى من المعاني وهي الحقيقة، فإذا غيروا دلالة اللفظ إلى دلالة أخرى لم يقتصروا عليها بل ذكروا معها قرينة، وهذا هو المجاز[٧].

ومن خلال هذه الأوجه والتقسيمات يمكن إدراك مدى تأثر اليمني العلوي بالمنطق من خلال تلك الحدود التي وضعها للتمييز بين الحقيقة والمجاز، واستحالة حصر جميع الألفاظ ضمن هذه الأوجه، فاللغة كائن حي ينمو ويتطوّر، زيادة في مظاهر التأثر والتأثير والتفاعل مع اللغات الأخرى، واختلاف المعاني مع المتغير الثقافي للأُمة، مما يدعو إلى رفد اللغة العربية بألفاظ جديدة تلائم ثقافة العصر.

لغة القرآن:

إنَّ أيّة لغة في العالم أضيق في مجالها اللفظي من تجليات الأفكار التي ترد على أخيلة المتكلمين بها، ومن هنا تصبح المعاني العرفيّة (الحقيقية) للألفاظ قاصرة عن الوفاء بمطالب التعبير اللغوي، لاسيّما في مجال الأفكار المجردة والصور والظلال، ومن هنا يغدو تجاوز الحقيقة اللغوية إلى استعمال لفظ آخر يسمى (المجاز) ضرورةً[٨].

فكان المجاز وسيلة من وسائل الأداء اللغوي، التي لا يمكن فهم طبيعته ووظيفته بشكل منفصل عن تصور طبيعة اللغة ودلالتها، وهذا ما يحيل على تصور أعم لطبيعة النشاط العقلي في سعيه نحو المعرفة[٩]؛ فقد ((شكَّل المجاز في الحياة العقلية العربية معضلة كبرى تجاوزت وضعها اللغوي، لتأسس لمفاهيم عقدية أنذرت بعصر جديد للفكر(الإسلامي)))[١٠].

لقد أدرك العلماء المسلمون أنَّ التعامل مع النَّصوص القرآنية على وفق ما تقتضيه اللغة الظاهرية، يمثل مشكلة أدت إلى وقوع اختلافات عقدية، أظهرها ما كشفت عنه الآيات التي تبدو في ظاهرها مناقضة لتصورات العقل، وهذا أدّى إلى ظهور الخلاف بين المسلمين، ليتجسد ذلك الخلاف في صورة مذاهب وفرق اتخذت من النَّصوص القرآنية أداة لضرب بعضها الآخر[١١]، وقد أدت تلك الإشكالية إلى نهضة فكرية كان الهدف منها الدفاع عن القرآن الكريم، وسط تلك التحديات العقدية.

وقد كان المجاز يمثل طوق النجاة لكثيرٍ من الفرق الإسلامية ولاسيما المعتزلة، فكانوا يتعاملون مع قضايا اللغة بعقل الفقيه المستسلم لحسّه المناهض لإثنينية الحقيقة والمحاز، فيفتي ببدعة وجود المجاز في القرآن وببدعة وجوده في اللغة أيضاً[١٢].

وقد ردّ الجاحظ (ت٢٥٥هـ) مبكرًا على منكري وجود المجاز؛ سواء في القرآن أو في غيره، جاعلاً المجاز مفخرةً من مفاخر العرب في لغتهم مؤكدًا ضرورته للاتساع في اللغة، بما يعطيها من مدلولات جديدة، وإغنائها بمعطيات ثرة وافرة[١٣]، فهو أول من استعمل المجاز للدلالة على الصور البيانية تارة أو على المعنى المقابل للحقيقة تارة أخرى[١٤].

بيد أنَّ هذه القضية لم تقتصر على فرقة من دون أُخرى و((الواقع أنَّ أغلب رجال البلاغة يدخل في هذا المذهب الذي يؤمن بدخول المجاز في القرآن الكريم واللغة))[١٥]، فقد أشار ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) منذ عهد مبكر إلى هذه المسألة، وقد ناقشها بأسلوب أدبي ونقدي بارع، مؤكداً على موافقة اللسان العربي للمجاز، مبيناً طرائق القول المجازية عند العرب في التعبير عن سائر احتياجاتهم اليومية المختلفة، ثمَّ ميّز بين الكذب والمجاز قائلاً: ((وأما الطاعنون على القرآن(بالمجاز) فإنّهم زعموا أنّه كذبٌ؛ لأنّ الجدار لا يريدُ، والقريةُ لا تُسألُ. وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلِّها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم. ولو كان المجاز كذبًا، وكل فعل يُنسب إلى غير الحيوان باطلًا– كان أكثر كلامنا فاسدًا؛ لأنّنا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر))[١٦].

وقد أيَّده في ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) حين سلّط الأضواء على المجاز في كتابيه (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة) ليكون المنظّر البياني في التطبيق القرآني للمجاز، فبلغ البحث المجازي على يديه مرحلة النضج العلمي، والتجديد البلاغي، ليغدو مصطلحًا دقيق المفهوم، مستكملًا لأسسه ومناهجه[١٧].

وقد عبَّر عبد القاهر الجرجاني عن رفضه الطعن في المجاز ليصل به الأمر واصفاً منكري المجاز بالضلالة قائلًا: ((ومن قدح في المجاز، وهمَّ أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطاً عظيماً، وتهدف لما يخفى [...] كيف بطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عهدها، والشيطان من جانب الجهل به مداخل خفيّة، يأتيهم منها فيسرق دينهم منهم وهم لا يشعرون ! ويلقيهم في الضلالة من حيث لا يظنون أنَّهم مهتدون))[١٨].

إنَّ استعمال المجاز في لغة القرآن ينبع من الحاجة إلى بيان محسنات القرآن البلاغية، لما للمجاز من طاقة مفعمة بحسن التعبير؛ فالحقيقة والمجاز يتقاسمان شطري الحسن والبلاغة في القرآن، ولو سقط المجاز لاختل بنيان الحسن فيه. وهذا ما أكدَّه الزركشي (ت٧٩٤هـ) في تعقيبه على نفي وجود المجاز في القرآن بقوله: ((وهذا باطلٌ ولو وجب خلوّ القرآن من

المجاز لوجب خلوّه من التوكيد والحذف والتشبيه والقصص وغيره، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن فيه))[١٩]. فقد قرن الزركشي خلوّ القرآن من المجاز، بخلوّه في المقابل من التوكيد والحذف وغيرها من عناصر البناء الفني والإعجاز القرآني وهذا محال.

وظهر عدد من العلماء يدعون إلى رفض وقوع المجاز في لغة القرآن، وخصّوا النص القرآني بالحقيقة، فضلًا عن كلام الرسول الأكرم (ﷺ) ، ومسوغهم في في ذلك إنّ كلام الله سبحانه وتعالى حقٌّ، وكلام رسوله حقٌّ وهو الموصوف من الله بأنّه﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم:٣]، إذن لا بدَّ أن تكون لغة الإخبار في كلام الله ورسوله مطابقةً للواقع[٢٠].

وهكذا رفض هذا الفريق من العلماء وقوع المجاز في القرآن، ودعوا إلى التعامل مع ظاهر النَّصوص المُشْكلة، وعدم الخوض في مسائل البحث والتأويل؛ لأنَّها قد تؤدي إلى نتائج تمسّ العقيدة.

وعلى الرغم من قلّة دعاة نفي المجاز عن لغة القرآن، فإنَّهم استثاروا بأفكارهم وآرائهم قضية خلافية مازالت قائمة حتى يومنا هذا. ولعل أبرز مَن مهّد لهذه القضية ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، وتلميذه الذي تأثر بأفكاره بشكل كبير ابن القيّم الجوزية (ت٧٥١هـ)، فقد عملا على وضع البراهين والأدلة لإثبات وجهة نظرهم في هذه المسألة، لإبطال دعوى مجيزي المجاز من العلماء في القرآن إذ رفض ابن تيمية التعامل مع المجاز في القرآن، بدعوى أنَّ تقسيم الألفاظ على حقيقة ومجاز، اصطلاح حادث، لم يتعارف عليه قبل القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ولم يتكلم به أحد من الصحابة والتابعين، بل هو من صنيع المعتزلة مشيرًا إلى ذلك بقوله: ((تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز، وتقسيم دلالتها أو المعاني المدلول عليها إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول أو في الدلالة، فإنّ هذا كلّه يقع في كلام المتأخرين. المشهور أنّ الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ، وبكل حال فهذا التقسيم اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة [...] . وأول مَن عُرف أنَّه تكلم بلفظ المجاز، أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه[مجاز القرآن]، ولكن لم يعنِ بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنَّما عنى بمجاز الآية ما يعبّر به عن الآية [...] وإنَّما هذا اصطلاح حادث من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين))[٢١].

وقد اعترض الدكتور محمد حسين علي الصغير على ما ذهب إليه ابن قتيبة بأنَّ هذا التقسيم إلى الحقيقة والمجاز حادث، ولم يظهر إلا بعد القرون الثلاثة الأولى قائلًا: ((ولا نريد أنْ نناقش ابن تيمية في نفيه لمصطلح المجاز في القرون الثلاثة الأولى، في حين استعمله بمعناه الاصطلاحي العام كل من الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وهما من أعلام القرن الثالث))[٢٢].

أمَّا تلميذه ابن القيِّم الجوزية فلم يخرج عن آراء أُستاذه، بل كان متأثرًا بها مستندًا إليها في إصدار أحكامه بخصوص هذه القضية.

وقد استدل منكرو تعامل لغة القرآن مع المجاز بأدلة عدّة أورد اليمني العلوي أربعة منها في الطراز محاولاً الردّ عليها ((أولها، هو أنَّ الله تعالى لو خاطب بالمجاز لكان يجوز وصفه بأنه متجوّز مستعير، وهذا غير لائق بالحكمة. ثانيها، أنَّه لا فائدةَ من العدول إلى المجاز مع إمكان الحقيقة فالعدول إليه يكون عبثًا لا حاجة إليه. ثالثها، هو أنَ المجاز لا ينبئ عن معناه بنفسه، فورود القرآن به يؤدي إلى أن لا يُعرف مُراد الله فيفضي إلى الإلباس وهو منزه. رابعها، أنَّ كلام الله تعالى كلَّه حقٌّ وصواب ، وكلَ حقٍّ فله حقيقة، وكلّ ما كان حقيقة فلا يدخله المجاز وهذا هو المطلوب))[٢٣].

وقد ردَّ اليمني العلوي على هذه الأدلة مبطلًا إياها مبينًا وهنها غير أنَّ ردوده كانت من أصل الاحتجاج، أي إنَّها تلائم الطبيعة الكلامية للحجج ومن غير الممكن أن تقوم العلل الكلامية فضلًا عن العلل الفقهية مقام العلل اللغوية، فهي لا تصلح أن تكون بديلًا عنها[٢٤].

وعلى الرغم من تشدّد الرأي القائل بإنكار المجاز في لغة القرآن، فإنَّ هذا لم يمنع منكريه من الالتجاء إلى تأويل بعض آيات القرآن الكريم، معترفين بوجوده من حيث لا يشعرون وقد أشار الدكتور عبد العظيم المطعني إلى تأويل ابن تيمية لبعض آيات القرآن الكريم بقوله: ((إنَّ الشيخ كثيرًا ما يحمل آيات القرآن الكريم على التأويل المجازي الواضح الحسن الجميل. ومع هذا فمذهبه الجدلي في إنكار المجاز قد عرفناه))[٢٥]. فضلًا عن اقراره ووصفه لتاريخ نشأة المجاز في قوله: ((إنَّ المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة))[٢٦]. وهذا يؤكد أنَّ موقف ابن تيمية كان عقدياً لا فنيًا، وهو يفصل بين المسلكين سواء كان يعي ذلك أم لا يعيه.

المجاز العقلي والرؤية المعاصرة:

على الرغم من المتابعة النقدية الحديثة للتفكير الديني في تناول المجاز، فإنَّها لم تتعدَّ الرؤية التنظيرية، التي تقف عند تاريخ نشأة الجدل بين الفرق والمذاهب حول المجاز في لغة القرآن، وإيراد الأدلة، والبراهين من التراث اللغوي والبلاغي التي استند إليها كلُّ مَن رفض وجود المجاز ومَن اعترف به، وهذا أبرز ما بحثه النقّاد المعاصرون حول هذه المسألة، أمثال الدكتور مهدي السامرائي في كتابه (المجاز في البلاغة العربية) في بابه الأوَّل الذي خصّه بدراسة النشأة التاريخية للمجاز ومراحل تطوره.

ولم تختلف رؤية الدكتور وليد قصَّاب عن تلك الرؤية التقليدية، في كتابه (التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري) موضحًا منهجه الذي اعتمده في دراسته بقوله: ((وقد تتبعنا في الدراسة منهجًا تاريخًا فنيًا))[٢٧]. محاولًا الوقوف عند أبرز جهود المعتزلة من النقّاد والبلاغيين واستخلاص خصائصها وسماتها في البحث وما نتج عنها من ضجة كبيرة في تاريخ الفكر العربي.

أمَّا الدكتور عبد العظيم المطعني، الذي يُعدُّ أبرز مَن بحث هذه المسألة وتوسع فيها، فقد تتبع جزئياتها ليصل إلى نتيجة تعبر عن رؤية أغلب النقّاد/البلاغيين المعاصرين ممَن لم يؤمنوا بقضية إنكار المجاز مشيرًا إلى ذلك بقوله: ((إنَّ إنكار المجاز في اللغة بوجه عام، وفي القرآن الحكيم بوجه خاص، إنَّما هو مجرّد دعوى بُنيت على شبهات واهية، كُتِب لها الذيوع والانتشار والشهرة ولكن لم يكتب لها النجاح))[٢٨]. مؤكدًا أنَّ السبب وراء استعار الثورة على المجاز، إنّما هو ارتباطه بمجال العقيدة والتوحيد[٢٩].

وبالمقابل كانت هنالك بعض الدراسات المعاصرة التي تحمل رؤية ضيقة عن المجاز، فهي لم تزل تؤمن بقضية الإنكار على الرغم من مرور زمن طويل وما حمله من نضج فكري، فإنَّ هنالك من أبى إلا العودة إلى نقطة البداية محاولًا بعث ذلك الصراع العقدي من جديد.

وأبرز مَن بحث هذه القضية بعد سكون ظلَّ عن إنكار المجاز خمسة قرون ونصف القرن من وفاة ابن القيم الجوزية الشيخ (محمد الأمين الشنقيطي) عندما وضع رسالة في منع المجاز في القرآن الكريم أطلق عليه، (منع جواز المجاز في المنزل في التعبد والإعجاز)[٣٠]. فقد حاول إنكار وجود المجاز في القرآن مبرراً ادعاءه بأنَّ كلام الله حقيقة ولا يجوز نفيه قائلًا: ((لا شيء من القرآن بمجاز وهذه، النتيجة كليّة سالبة صادقة))[٣١]. منكرًا

على المعاصرين ادعاءهم الإيمان بجواز المجاز في القرآن الكريم ليكون ذريعة للتوسع في التأويل، ونفي صفات الكمال والجلال الإلهي، مؤكدًا وجوب التعامل مع ما جاء في القرآن والسنّة بحسب ما تقتضيه ظواهر الألفاظ، مشيرًا إلى ذلك بقوله: ((فإنَّا لمَّا رأينا جُلَّ أهل هذا الزمان يقولون بجواز المجاز في القرآن، ولم ينتبهوا لأنّ هذا المنزّل للتعبّد والإعجاز كلَّه حقائق وليس فيه مجاز وأنَّ القول فيه بالمجاز ذريعة لنفي كثير من صفات الكمال والجلال، وأنَّ نفي ما ثبت في كتاب أو سنّة لاشك في أنَّه محال))[٣٢]. ولم يقتصر إنكار الشيخ للمجاز بحسب رأي الدكتور عبد العظيم المطعني على القرآن والسنة فحسب، بل تعداه إلى إنكار المجاز في اللغة مطلقًا، ولكنَّه على الرغم من إنكاره هذا فإنَّه لم يسلم من المجاز في حرّ كلامه، فكان في ذلك مثل ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم الجوزية، إذ إنَّ له في المجاز مذهبين:

الأوّل: جدلي نظري انتهى فيه إلى منع المجاز وإنكاره.

الثاني: عملي سلوكي نحا فيه منحى مجوّزي المجاز، فقد رأى فيه ضرورة لا غنى عنها في استجلاء المعاني وكشف أسرار البيان[٣٣].

ولضيق هذه الرؤية لم تحقق حضورًا واسعًا عند النقّاد/البلاغيين المعاصرين، بل على العكس من ذلك كانت هنالك الكثير من الدراسات التطبيقية الحديثة، التي عُنيت بدراسة مجاز القرآن على الرغم من أنَّه ((لم يكن قبول فكرة (المجاز) في القرآن الكريم أمرًا سهلًا عند المسلمين جميعًا فهم مجمعون على اختلاف مللهم ونحلهم على وقوع الحقيقة فيه))[٣٤]، وبسبب ذلك يعزي الدكتور إياد الحمداني عنونة سيد قطب لكتابه الذي خصّه بدراسة المجاز بـ(التصوير الفني) ابتعادًا فيه عن التصريح بلفظ المجاز على الرغم من وجود مبحث صريح في الكتاب في (التخييل الحسيّ والتجسيم)[٣٥].

إنَّ هذا الأمر لم يقف عائقًا في وجه تطور الدراسات المجازية القرآنية، بل قابلت هذا التيار دعوات أساتذةٍ ذوي حميّة على كتاب العرب الأكبر، مثل الدكتور أمين الخولي، والدكتورة عائشة (بنت الشاطئ) لإدخال القرآن في مختلف شؤونه الجمالية موضوعًا بلاغيًا وتفسيريًا في الدراسات العليا بجامعة القاهرة في قسم اللغة العربية وآدابها بخاصة، لتُكتب عشرات الرسائل التي تتناول مجاز القرآن، وبيان القرآن، واستعارة القرآن وغيرها[٣٦]، ولم تقتصر هذه الدراسات على جامعة القاهرة، بل أثمرت تلك الجهود عندما وجدت آذانًا واعيّة، وأسماعًا

مصغيّة لدى الشباب المتحفّز في مختلف الجامعات العربية، ومنها الجامعات العراقية، لتتسم بإشارات قيّمة لمختلف صنوف البيان القرآني معتمدة المنهج البلاغي روحا ومسلكًا في الكشف عن وجوه إعجاز القرآن(٣٧).

ومن أبرز تلك الدراسات التي تناولت مجاز القرآن موضوعاً لها، دراسة الدكتور محمد حسين علي الصغير (مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغتهُ العربية) التي تركت أثرًا كبيرًا في مجال الدراسات البلاغية القرآنية المعاصرة، فقد كسا الدكتور محمد حسين علي الصغير المجاز حلّةً جديدة حينما تناول دراسته على وفق معطيات نقدية فيها قدر من التجديد، مؤكدًا مدى تطور الدراسات البلاغية للقرآن، فقد حاول في دراسته هذه تلمس الخصائص الفنية لمجازات القرآن من خلال اقتران الغرض الفني بالغرض الديني في القرآن الكريم لامسًا إيّاها في: الأسلوب، والنفس، ومظاهر الاستدلال العقلي، ويمكن توضيحها بالآتي: (٣٨)

١- **الخصائص الأسلوبية:** إذ بيّن فيها ما يتمتع به المجاز القرآني من خصائص أسلوبية من خلال توضيح فلسفة عمله، فهو يرى أنَّ المجاز وإن كان الفاظًا تُدرك بذاتها حروفًا واصواتًا وهيأةً في الشكل، ويُدرك كذلك بمعناه، فالمعنى هو المعنى لم ينقص عنه شيء إلاّ أنَّه حمل إطاراً أسلوبيًا جديدًا حين انتقل اللفظ إلى مناخ أوسع مما كان عليه حيث أُريد به الاستعمال المجازي بتطور ذهني، نقله من موقع إلى آخر، زاحفًا بمعجمه بمعنى من حدث معين له دلالة مركزية في الذهن إلى حدث أكبر، الأمر الذي يضفي على المجاز خصائص أسلوبية كالإيجاز، والتطوّر، والاكتفاء عن تركيب جديد، تجعل من المتلقي الاستغناء عن أيِّ تركيبات معقدة أُخرى في أيِّ لغة.

٢- **الخصائص النفسية:** فقد عُدَّ المجاز، أبرز أدوات التعبير في المواقف النفسية المختلفة في القرآن من ترغيب أو ترهيب، فإن أُريدت الصورة وهي متناهية في الجمال والأناقة وجدنا المجاز القرآني يقود اللفظ إلى ما هو أرجح معنًى وأرق في حالة النقل مما كان عليه، وإنْ أُريدت صورة متداعية في القبيح سيق اللفظ إلى ما يُمثل بما هو أردأ منه في الصيغة الحقيقية.

٣- **الخصائص العقلية:** أكدَّ الدكتور محمد حسين الصغير أهمية الجانب العقلي للمجاز في الكشف عن ما وراء الظواهر من الأساليب التي توهم ببعض الشبهة لدى الساذجين، لتكون

مهمة المجاز العقلية هي الكشف عن تلك الشبهات بما تسخّره من طاقات بيانية كاشفة، بما تستلهمه من مناخ يقود الذهن إلى ميناء سليم.

أمَّا الدكتور إياد عبد الودود الحمداني فلم يكتفِ بدراسة الصور المجازية في القرآن بشكلها التقليدي، بل عمل إلى تخطي الحدود التقليدية للمجاز، ليقول بمجازية التشبيه في القرآن في تحليله لبعض آي القرآن، في كتابه (التصوير المجازي أنماطه ودلالاته في مشاهد القيامة في القرآن). ففي تناوله لقوله تعالى﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [النور:٣٥]، بيَّن أنَّ هنالك علاقة (تعارض) تربط الصورة المجازية (الله نور السموات والأرض)، مع الصورة لتشبيهية (مَثَل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح)، فبعد أن أصبح الله مصدرًا للنور، ارتبط نور الله بعلاقة مشابهة مُعلنة مع المشكاة، ليخرج بمفهوم جديد في التشبيه، ينسف معيارية التشبيه القائلة: ((إنَّ من شروط بلاغة التشبيه أن يشبّه الشيء بما هو أكبر منه وأعلم))[٣٩]، فهو يرى أنّ العلاقة بين طرفي التشبيه هي علاقة تغريب وإيهام مستندة إلى المجاز، وهذا خلاف العلاقة المعيارية التبادلية والتفاعلية التي تربط طرفي التشبيه[٤٠].

وهنا نستطيع القول إنَّ موضوع المجاز في جانبه العقدي لم يشغل عناية النقّاد والمحدثين بشكل واسع كما هو الحال عند النقّاد القدماء، فالدراسات الحديثة لم تخرج عن دائرة الدراسات القديمة، مقتصرةً في أغلب الأحيان على اعادةِ ما ذكره النقّاد القدماء من آراء حول هذه القضية، وبالمقابل كانت هنالك دراسات لنقّاد معاصرين حاولوا الخروج بالبلاغة من قيد الجمود تجاه الرؤية الأسلوبية التي تنسجم مع ذائقة العصر.

الخاتمة

لقد تمخضت هذه الرحلة الممتعة في عوالم التنظير النقدي عن نتائج وملاحظات علمية يمكن تسجيل أهمها في الآتي:

١.كان للقرآن الكريم أثر واضح في طريقة المعالجة النقدية للمجاز، في جانبين:

أحدهما: يتعلق بالعقيدة والآخر: يتعلق بطريقة الكشف عن الإبداع الذي سميَّ في الدراسات القرآنية (الإعجاز).

٢.انحسر التفكير بعدم وجود المجاز في القرآن الكريم في الرؤية النقدية المعاصرة؛ لأنَّ التأثيرات التي انبعثت من هذه الفكرة لم تكن فنية، بل كانت عقدية في حدود رؤى بعض الدارسين.

٣.من الأمور التي خرجت بها الدراسة، ضرورة الفصل بين المجاز بمفهومه العقدي والمفهوم الفني الحاضر في النقد والنصوص.

٤.وجد البحث أنّ الفصل بين المجاز بمفهومه العقدي ومفهومه الفني ضرورة يجب الالتزام بها، فالمنظور العقدي يبحث في العقيدة في أكثر صوره – بعيدًا عن عوالم التصوير والجمال التي يحققها المجاز، وعليه يوصي البحث بضرورة الوعي بذلك.

٥.على الرغم من وجود بعض الذين تابعوا التفكير الديني في النظر إلى المجاز، فإنَّ الرؤية الغالبة لدى النقّاد والبلاغيين تعاملت مع المجاز بوصفه عنصرًا فاعلًا في التصوير، وما أُثير حول نفي وجود المجاز في القرآن بالكيفية التي يتناقلها الوسط الثقافي مفخّمة لا تطابق الواقع، والسمة الغالبة في التفكير البلاغي تميل إلى التعامل مع المجاز في التعبير القرآني، وقد تعدّت رؤية الكثير من النقّاد المعاصرين إلى التعامل مع الأنماط البيانية في حدود الأسلوبية التي يحققها المجاز.

Abstract

Metaphor in the Complex Perspective

An M.A. thesis extracted research

Keyword: Metaphor ,Complex, Perspective

Fanan Najim Abdulilaah
Directorate of Diyala Governorate

Prof. Ayad Abdulwadoud Al Hamdani (Ph.D.)
University of Diyala
College of Education for Human Sciences

This study was intended to shed the light on the complex vision of metaphor from the Muslims perspective as well as the way in which

contemporary critics denied its existence in the Glorious Quran and Prophetic Hadith. On the other hand, the others assumed its existence and regarded it as one of the mechanisms of the style that achieve Quranic inimitability. The study tried to analyze, then, discuss the critical outcome of both parties.

الهوامش

(١) الخصائص :٢/٤٤٤-٤٤٥.

(٢) المصدر نفسه:٢/٤٤٩.

(٣) التصوير المجازي – أنماطه ودلالاته:١٣.

(٤) الصاحبي في فقه اللغة العربية : ١٤٩.

(٥) ينظر: الاستعارة في الدراسات الحديثة، (رسالة ماجستير): ١٣ .

(٦) المثل السائر:٢/٧٥.

(٧) ينظر : الطراز: ١/٥٠-٥١، وعلوم البلاغة عند العلوي اليمني(رسالة ماجستير):٣٧.

(٨) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها :١٩.

(٩) ينظر: الاتجاه العقلي في التفسير :٦.

(١٠) مناهج البحث البلاغي(أطروحة دكتوراه) :٣٩.

(١١) ينظر: المجاز في البلاغة العربية:٢٤.

(١٢) ينظر: كتاب الإيمان:١٠٣.

(١٣) ينظر: التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة :٣٣٦.

(١٤) ينظر:الحيوان:٥/١٢٣,١٣٤.

(١٥) المجاز في البلاغة العربية :١٤٩.

(١٦) تأويل مشكل القرآن :١٣٢.

(١٧) ينظر: مجاز القرآن (الصغير):٢١-٢٢.

(١٨) أسرار البلاغة:٣٨٩.

(١٩) البرهان في علوم القرآن :٢/٢٥٥.

(٢٠) ينظر: المجاز في البلاغة العربية:١٤٤.

(٢١) كتاب الإيمان:٧٣-٧٤.

(٢٢) مجاز القرآن (الصغير):١٧.

(٢٣) الطراز:١/٨٤-٨٥.

(٢٤) ينظر: الاستعارة في الدراسات الحديثة(رسالة ماجستير):١٧.

(٢٥) المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه:٧٦-٧٧.

(٢٦) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية :٣٠٨/٣، وينظر: المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه:٧٧.

(٢٧) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة:٧.

(٢٨) المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه:٨٤.

(٢٩) ينظر: المصدر نفسه:٨٤.

(٣٠) ينظر: المصدر نفسه:٥١-٥٢.

(٣١) منع جواز المجاز :٧.

(٣٢) المصدر نفسه:٣.

(٣٣) ينظر: المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه:٨٤.

(٣٤) التصوير المجازي -أنماطه ودلالاته: ١٧.

(٣٥) ينظر: المصدر نفسه:١٨.

(٣٦) ينظر: مجاز القرآن (الصغير):٤٣.

(٣٧) ينظر: المصدر نفسه:١٦٠.

(٣٨) ينظر: المصدر نفسه:١٦٣,١٦٢.

(٣٩) المثل السائر:١٣٢/٢، وينظر : التصوير المجازي- أنماطه ودلالاته:٣٠.

(٤٠) ينظر: التصوير المجازي- أنماطه ودلالاته:٣٠.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- أسرار البلاغة في علم البيان، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧٤هـ)، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر/محمود محمّد شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٩٩١م.
- الاتجاه العقلي في التفسير/دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٦م.
- [كتاب] الإيمان، ابن تيمية، خرّج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٥، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي بدر الدين (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: أبو الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.
- البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١٢، ٢٠٠٣م.
- البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب و د. كامل حسن البصير، مطابع بيروت الحديثة، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(ت٢٧٦هـ)، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م.
- التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، د. وليد قصّاب، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدوحة- قطر، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- التصوير المجازي- أنماطه ودلالاته في مشاهد القيامة في القرآن، أ.د إياد عبد الودود الحمداني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان - الأردن، ط١، ٢٠١٤م.
- التفكير البلاغي عند العرب أُسسه وتطوره الى القرن السادس/مشروع قراءة، د. حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط٣ ،٢٠١٠م.
- [كتاب] الحيوان، عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، ت:عبد السلام محمّد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٦٧م.
- الخصائص، صنعه أبو عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: أ. محمّد علي النجار، دار الكتب المصرية، (د.ت).
- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، د. محمّد السيّد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط٢، ١٩٨٤م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي أبو الحسن (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت٧٤٩هـ)، مطبعة المصطفى، مصر، ج١، ١٩٨٤م.

- العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. نوال عبد الرزّاق سلطان، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٩٦٣م.
- في المصطلح النقدي (عربي – عربي) دراسة ومعجم، د. أحمد مطلوب، مكتبه لبنان ناشرون، ط١ ،٢٠١٢م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٤م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، قدمه وعلّق عليه د. أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٢، ١٩٧٣م.
- مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٤م.
- المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار، د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- المجاز في البلاغة العربية، د. مهدي صالح السامرائي، حماة دمشق، ط١، ١٩٧٤م.
- المختصر في تاريخ البلاغة، د.عبد القادر حسن، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، مج١، ط١ ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
- منع جواز المجاز في المنزّل للتعبّد والإعجاز، محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشنقيطي(ت١٣٩٣هـ)، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.ت).
- الموجز في تاريخ البلاغة، د. مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨١م.
- الرسائل والأطاريح:

- الاستعارة في الدراسات الحديثة (رسالة ماجستير)، وليد فرحان علي، إشراف: أ.د فائز هاتو الشرع، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠١١م.
- أمين الخولي وجهوده البلاغية (رسالة ماجستير)، أروى أنور عبد الحميد، إشراف: د. حسن يحيى محمد رضا، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٢م.
- علوم البلاغة عند العلوي اليمني بين التقليد والتيسير(رسالة ماجستير)،مليكة بن عطاالله، إشراف: د. أحمد بلخضر، كلية الآداب، جامعة قاصدي مرباح–ورقلة، ٢٠١٠م.
- مناهج البحث البلاغي عند العلماء العرب حتى القرن الثامن الهجري/دراسة في الأسس المعرفية (أطروحة دكتوراه)، عماد محمّد محمود البخيتاوي، إشراف: أ. د عبد الرحمن شهاب، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية،٢٠١٠م.
- **البحوث:**
- القاعدة والذوق في بلاغة السكاكي (بحث)، د. يوسف رزقة أستاذ مساعد بكلية الآداب – الجامعة الإسلامية غزة، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد٧، ع١ يناير، ١٩٩٩م.